

نظرة في الصّلات العربيّة الفارسيّة حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

(2)

يلام نطقها العربي ، فابدل الحرف بحرف يدنو من مخرجه ، ان لم يكن هذا الحرف نفسه ، لان نطقه في الفارسية لا يوازن نطقه في العربية ، فحور في الشكل ، ولام في المخرج .

وقد جرى هذا ، اما بابدال حرف مكان آخر ، واما بزيادة حرف او حرفين ، واما بتغيير البناء كله ليصير من ابنية العرب ويتمكن من الاشتقاق منه . وقد ينقص حرفا او يبدل في الحركات ، او يسكن ، او يحرك الساكن . وقد يتركه على حاله دون تغيير ان لم يحوجه الامر الى ذلك .

والجدير بالملاحظة ان العربي اخذ اسماء ولم يأخذ افعالا او حروفا ، وحينما احتاج الى افعالها اشتق ما حلا له وما شاء . فمن (الجم) قال : الجمعت الفرس . ومن (مهر) : مهر الكتاب . ومن (ديوان) : دون الحساب . ويمكن حصر هذه الاسماء ، فهي اما اسماء نبات او حيوان او معادن او آلات او مأكولات او مشروبات او عادات مما لم يكن يعدها العربي من قبل .

فكلمة (طبرزين) التي هي في الفارسية (تبرزين) اسم لسلاح ، كان يعمله الفارس الفارسي معه . وقد تكلمت به العرب . قال جرير

وكان من نتيجة اتجاه الحكم وجهة الشرق ان تأثر العرب باساليب حكم الفرس ، وبمظاهر حياة جديدة افوتهم جذتها وجذبهم لمآنها ، مما اضطر بعض خلفاء بني العباس خاصة الى التعرف على تاريخ الفرس والاطلاع على اخبار ملوكهم ومواعظ حكمائهم كجزء هام من ثقافة الخليفة او الامير . ولا زلنا نذكر ان المأمون حكم في بلاد فارس ردحا من الزمان ، واستعان بالفرس على اخيه الامين في بغداد .

ولقد تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الازياء والفرش والاثاث والانبية . وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها باسمائها الفارسية او اليونانية او الهندية .

ونحن اذا تصفحنا المعجمات العربية - وليس ذلك بعسير - وجدنا عددا وافرا من المفردات كتب المؤلف عنها انها اعجمية او معربة او ان اصلها فارسي . كذلك اذا نظرنا الى القواميس الفارسية وجدنا اكثر من ثلث الفاظهم - ولم اغال في ذلك - عربية ومستخدمة في لغتهم الى اليوم .

ولم يتوان العربي عن اخذ اية مفردة احتاج اليها من جاره ، وقد تجرأ على تغيير شكلها بحرية بشكل

في رجل من بني كليب ، يقال له (مجيّب) ، اتهم بقرعة ، فلم يلحقوا عليه شيئا فخلوا عنه :

كان مجيد الخبث تلقى يمينه

طبرزين قين مقضبا للمفاصل

تداركه عضو المهاجر بعدما

دعا دعوة يا لهفه عند نائل

وكانوا يبدلون الحرف (ب) بثلاث نقط باء
أحيانا ، وأحيانا أخرى فاء ، لأن نطقه واقع بين الباء
والفاء ، والثلاثة من الحروف الشفوية . فقالوا لـ
(برند) فرند وافرند وبرند وهو السيف أو جوهره .
وكذلك قالوا لـ (بنتكان) فنجان . ومثلها : الأصفهانى
والاصهباني وكلاهما واحد . وكذلك قلبوا الشين
سينا . فقالوا للصحراء (دست) وفارسيته (دشت)
قال الاعشى :

قد علمت فارس وحمير وال

أعراب بالدست إيكم نزلا

وحولوا كلمتي (بنفشه و لشكر) الى بنفش
وعسكر . أما حرف (الكاف الفارسي) فقد أكثر
من تبدله وتحويله . فبعض الكلمات الفارسية قلبت
كافها الفارسية الى كاف عربية مثل : (كردن : عنق)
فقالوا لها: كردان . وقالوا لـ (الكنج) كنزا . وهنا
حصل ابدالان ، فالقاف مكان الكاف والزاي مكان
الجيم . وقد تبدل الكاف الفارسية فينا كما في غربال
التي أصلها (كربال) . أما تحول الكاف العربية والكاف
الفارسية الى جيم وقاف ، فقد كان كثيرا مثال :
لكام - لجام . كربه - قريبق ، ويعربها بعضهم
(كريبج وكريق) ، وهي بمعنى دكان البقال قديما ،
لأننا سنرى بعد أسطر أنهم كانوا يبدلون الهاء جيما
أو قافا إذا كانت في آخر الكلمة .

أما الكلمات الفارسية التي تنتهي بهاء السكت
فأنهم بدلوها جيما ، فكلمة (بالوده) عربت الى
(فالودج) ، وهي حلوى من الطحين والنشاء
والشراب ، والموام عندنا يلفظونها (بالوظا) لفظا
تركيا . و(برده) عربوها الى (برديج) وهي السبي من
الجواري أو الغلمان . قال المعجاج :

كما رأيت في الملاء البردجا

وقالوا للقصر (جوسق) وأصلها (جوسه) وقد
تحولت في العامية الى (كشك) . وقد يبدلونها قافا
كما في (باشه) وهو صقر الصيد ، قالوا له (باشق) .

وإذا أتى قبل الهاء حرف الدال فإنهم يبدلونها بالدال
فالجيم مثل : ساده ونموده ، قالوا : ساذج ونموذج .
وبدلوا التاء طاء ، فقالوا لـ (تازه) طازج .

وقد يزيدون على الكلمة حرفا أو ينقصون منها
حرفا ، فقالوا لـ (كليد) التي هي بمعنى المفتاح (مقليد)
أو (اقليد) . قال الراجز :

لم يؤذها الديك بصوت تغريده ولم تعالج غلقا باقليد

ونلاحظ أنه لم يجتمع في كلمة عربية الجيم
والقاف إلا بحاجز ، ولا الصاد والجيم . وليس في
أبنة العرب اسم فيه نون بعدها راء مثل : نرجس .
ولا زاي بعد دال مثل : اندازه ، ثم ابدلوا الزاي سينا
فصارت هندسة . كما أنه ليس في العربية كلمة مبنية
من باء وسين وتاء ، وإذا وجدنا كلمة رباعية أو
خماسية وليس فيها حرف أو حرفان من حروف
الزلاقة ، وهي ثلاثة من طرف اللسان : الراء والتون
واللام ، وثلاثة من الشفة وهي : الفاء والباء وأليم ،
فالكلمة ليست عربية مثل : صهريج وشبارق وهو
فلذات اللحم التي تقطع للطبخ .

كما كان يتم التأثر عن طريق الجواري أو
الأميرات الفارسيات اللواتي انتقلن الى البيت العربي
فكان لابد لهن من أن تؤثر لفتن وعادتهن في
أزواجهن وأولادهن ، وكم عشق الشعراء هؤلاء
الجواري وكم نظموا فيهن . فلقد أهدى الوليد بن
يزيد ابن ميادة الشامر جارية طبرستانية رائحة
الجمال ، كان تقصها الوحيد في نظره أنها لا تحسن
العربية ، فقال فيها :

باهلى ما الدك عند نفسي

لو انك بالكلام تعريينا !

ويتبدى هذا التأثر بواسطة الأسر الفارسية
التي هاجرت من إيران الى البلاد العربية ، كما حصل
لوالد المهلب الذي هجر بلاده ، وسافر الى عمان ،
فطلق ديانته الزردشتية ، واسلم وجعل اسمه أبا
صفرة . والعرب إذا كانوا يأخذون اللفظة للحاجة ،
فقد أخذوها للتفكه ، كقول أبي المهدى :

يقولون لي شنبدا ، ولست مشنبدا

طوال الليالي أو يزول تبير

ولا قائلا زودا ليمجل صاحبي

وبستان في صدري علي كبير

وشنبذ : من الكلمة الفارسية شنبه أي يوم السبت . وزودا من زود معناها جبل . وبستان : خد . أو يأخذونها للتفاح بمعرفتهم الفارسية ، كما نجد الأمثال الكثيرة على ذلك في كتابي : يتيمة الدهر ودمية القصر .

وعلى هذا فقد تأثر العرب بالفرس لغويا كما تأثروا بالأمم المجاورة ، على أن تأثرهم بالفرس أكثر وأوسع نطاقا . وقد جرت هذه الالفاظ الى العربية في أزمان متفاوتة . فلم ترحمهم كثرتها ولم يعقبهم نطقها . ومن الحق أن نقول أن للفارسية فضل راب الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذي تطلبه العصر الجديد بعد الفتح ، فدخلت في قرآننا ، وشعرنا ، ونثرنا ، وأمثالنا .

وإذا كنا تأثرنا بهم حكما وسياسة وثابعية ودينا ولغة قبل الاسلام ، فإننا أثروا باستقلالهم واديانهم ومادابهم ولغاتهم بعد الاسلام ، ولما ضاع استقلالهم ، واندمجوا في دولة الاسلام التي قادها العرب ، ولما ضاعت اديانهم وذابوا في الديانة الاسلامية ، انغمسوا في اللغة العربية ومادابها وعاداتها .

وكنا ذكرنا في مقالنا السابق أن الأثر العربي الأول في الفارسية كان في تغيير الخط البهلوي الصعب بالخط العربي السهل .

على أننا لا نلبث نراهم يقتبسون الالفاظ الدينية لتتبعها الالفاظ العلمية ثم الالفاظ الادبية . ورغم أن اللغة العربية هيمنت على الأرض الفارسية ، ورغم أن القرون الثلاثة الأولى كانت العربية لغة العلم فيها ، فإن العربية لم تستطع أن تمحو الفارسية تماما . فقد ظلت متداولة بين الناس على الأقل ، وبين الشعراء لحاجتهم إلى القوافي ، ولا يمكنهم استخدام الالفاظ الفارسية في القافية دائما لأن الفاظهم غير كافية لذلك . ويكفي أن ينظر المرء في ديوان فارسي ليجد أن ثمانية بالمائة تقريبا من الفاظ القوافي عربية .

ولقد بدأ الفرس في مقاومة العربية منذ القرن الرابع ، فقد لاحظهم أن تكون العربية رائجة كل هذا الرواج في بلادهم ، وأن يكون العرب حكاما لهم ، وأول هذه المقاومات كان استقلال الدويلات الفارسية في مناطقها ، وتشجيع الشعراء الفرس على نظم القصائد الحماسية والقومية . فقام شعراء ينظمون الشاهنامات ، ويعتمدون الاقلال من ذكر الالفاظ

العربية . وقام ادباء يحضون على الكتابة الفارسية - غير أن هاتين الطيقتين لم تستطعا الحد من التأثير اللغوي للحاجة الماسة الى كل ما دخل من الفاظ ، حتى أنهم انفسهم استخدموا الالفاظ العربية في موضوعاتهم الحماسية والقومية هذه .

وكما دخلت القوام الكريم الفاظ فارسية فقد دخل الحياة العربية كثير من الفاظ دالة على الزينة والتشريف مما لم يكونوا راوها ، كما راوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يخطر لهم على بال . فاضطروا أن يقتبسوا من الاسم المفتوحة الفاظا يدخلونها في لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية أقرب نبع يستقون منه ما يحتاجون .

- فمن أسماء الازهار الفارسية : النرجس . البنفسج . النسرين . الخيري . السوسن . الجلنار . الأرجوان .

- ومن الطيب : المسك . العنبر . الكافور . الصندل . القرنفل .

- ومن الاطعمة : السميد . الكمك . السكاج . الدجاج . الكبة . الخريز وهو البطيخ . الفستق .

ومن الحلوى : الفالودج (وعربت الى البالوظة) . الجوزنج . اللوزنج . الزردة . الجلاب .

- ومن التوابل : الفلفل . الزنجبيل . القرفة . الكراوية (وهي الاكلة المعروفة في دمشق خاصة) .

- ومن المفردات الحضارية : مهندس . روزنامه . نرد . برسيس (برجيس) . طربوش . بابوج . كوز ابريق . طست . خوان . طبق ، كاسة (عربت الى قصعة) . خز . ديباج . سندس . لجام . غربال . كردان . ساذج . طازج . نموذج . برنامج . سمسار دهقان . صولجان . فتجان . نيزك . زنديق . بازار .

- ومن مفردات الدواوين : مهر . ديوان .

- ومن الأسلحة والحرب : سبيد وهو كالامير والقائد عند العرب . درفش (علم) . طبرزين . جند . مسكر . لجام . صولجان .

- ومن الحيوانات : شاهين . باشق . جاموس جؤذر (كاونر) . ذنب .

ولقد عمد العربي الى ما خفف على اللسان ، واستعذبت الأذن جرسه ، وأن كان عنده اسم لها ، لاستعار : مسك . ثوت . وصاص . ميزاب .

مكان : مشوم . فرصاد . صرفان . مشعب .

— كما اخذوا بعض التراكيب منها :

— جلاب (ماء الورد) . ميزاب (سيل ماء) .
سرداب (الماء البارد) سراب (رأس الماء) . زركشة
(التطريز بالذهب) .

— كما استعملنا في عاميتنا عددا كبيرا من
الالفاظ كانت الخلافة العثمانية سببا هاما في نقل
بعضها لان اللغة الرسمية في بلاط استانبول كانت
اللغة الفارسية :

كبة . كفتة . نازيك . سيخ . كباب . كفكير .
يشكير . خولية . عرموط . جادة . جاكوج .
بوقالة . نهنا . بقلالة . ارمغان . برشت . كشتبان .
بابوج . طربوش .

ولقد استخدم الادباء العرب الكلمات الفارسية
في تراكيبيهم . من ذلك قول الجاحظ في البخلاء :
« ويسكروا الدرياجة على صغار السمك » .
والدرياجة هي البحيرة ، و (سكر) كلمة سريانية .
وكان الاخفش يقول لتلاميذه : لا تقولوا عندي كلمة
هم وبس . وهكذا لا تقولوا لفلان بخت . وفي حديث
مجاهد : يغدو الشيطان بغيروانه الى السوق .
وغيروان معربة عن كاروان معناها القافلة .

اما المفردات العربية التي استخدمها الفرس في
لغتهم ، فقد كانت في كل باب . اذ انهم اخذوا :

— مفردات دينية : زكاة . حج . مسلم .
مؤمن . كافر . منافق . فاسق . حنث . خبيث .
قروان . اقامة . تيمم . متعة . طلاق . زواج . قبله
محراب . منارة . ابليس — زقوم . سلسيل .
حلال . حرام . بركة .

— ومفردات في الادارة والسياسة : خليفة .
ملك . امير . وزير . حاجب . قاض . غلط . خطأ .
مارية . نصح . فضيحة . جلاد . سياف . مستخدم

— ومفردات الدواوين : كتاب . حبر . قلم .
مداد . خط . درس . فصل . باب . الاعداد حتى
العشرة .

— ومفردات الالبسة : جبة . ازار . لحاف .
مخدة . طراز . رداء .

— ومن اسماء الاطيار : فاخشة . قمري .
بلبل . لقلق . غراب .

— ومن اسماء ادوات الرينة : حناء . غالية .
بخور .

— ومن اسماء البلاد والافلاك : بلد . صحراء .
طبيعة . بركة . حوض . سهيل . فاك . مشرق .
مغرب . شمال . جنوب . طالع . صبا : دبور .

— ومن اسماء اصحاب المهن : خياط . نقاب .
بيطار . بقال . صراف . دلال .

— واسماء خاصة بالاطعمة واللهم : قمار .
سفرة . قثينة . شراب . خمرة . غذاء . حلواء .
هريسة . قطائف . قلية . نقل .

— واسماء في الحرب : حرب . جهاد . علم .
طبل . مرادة . منجنيق . ركاب . لواء . نصل .
دبوس . حربة . حلقة . قفل .

— واوصافها : نبيل . لطيف . ظريف .
عاشق . شاعر . كاتب . وفاء . احمق . جاهل .

— كما اخذوا تراكيب واتصلا ، واعتبروها
بشكل مفرد :

سرحدات : رأس الحدود . فهميدم : فهمت
(من الفهم) .

مرد لا ابالي : رجل مهمل . زمين لا يزرع :
ارض لا يمكن زرعها . بالاضافة الى عشرات
المفردات التاريخية . وعشرات المفردات الجغرافية ،
وكذلك الطبية والفلكية . واذا طالعنا نثرا او شمرا
فارسيا وجدنا ان النسبة المئوية للمفردات العربية
تبلغ احيانا 45 او 50 ٪ ، واذا سعى الاديب ان يقل
من الالفاظ العربية ، فانه لا يمكنه ان يستغني عن
20 ٪ من المفردات العربية .

والجدير بالملاحظة ان اغلب الالفاظ العربية
التي دخلت الفارسية بقيت محفوظة على شكلها
الذي اخذوه لعدم وجود الاشتقاق عندهم ، اما اللفظة
الفارسية التي دخلت العربية فانها صهرت بالعربية
واشتقوا منها حتى ضاع اصلها على المطالع . وربما
فيض الله يوما لائمة اللغة من الامتين تجمعهم حبة العلم
وفريضة الادب ليتحلقتا حول الدواوين والمعجمات
سنوات ليصفوا ما لنا وما علينا ، وما احسب ان الامر
يسير ، لما حدث من تلاحم واندماج ، بل لما هنالك من
تشابهات وصدف . وهل اخذت اللفظة من العربية ام
من العبرية ام من السريانية . ومن ناحية ثانية هل

أخذت من البهلوية أم السنسكريتية أم الفارسية
الدرية ؟ .

ملاحظة أخرى جديرة بالانتباه تدل على مدى
التبادل اللغوي بين الامتين . ذلك ان العرب
استخدموا أسماء فارسية لمسميات ، في حين ان
الفرس استخدموا أسماء العربية . وقد حصل
هذا في العصر الحديث خاصة :

فنحن نقول روزنامه ومعناها (كتاب اليوم)
والفرس يستخدمون (تقويم)

ونحن نقول كهرباء ومعناها (جاذب القش)
والفرس يستخدمون (برق)

ونحن نقول دستور ومعناها (قانون) والفرس
يستخدمون (قانون)

ونحن نقول اركيلة - ناركيلة ومعناها (جواز
الهند) والفرس يستخدمون (غليان)

ونحن نقول كنار ومعناها (طرف) والفرس
يستخدمون (حاشية)

ونحن نقول كاسة ومعناها (زبدية) والفرس
يستخدمون (باطية)

ونحن نقول دستور ومعناها (القانون الاساسي)
والفرس يستخدمون (مشروطة)

ونحن نقول شرشف ومعناها (غطاء الليل)
والفرس يستخدمون (ملانة أي ملحفة)

ونحن نقول خرقة ومعناها (القراصة والاشياء
الدقيقة) والفرس يستخدمون (خرزة)

ونحن نقول بخشيش ومعناها (الانعام)
والفرس يستخدمون (انعام)

وقد اخذ العرب أسماء فارسية وتسموا بها
مثل : قابوس وهو معرب عن (كاووس) . وقد لقب
بها النعمان بن المنذر . ومن النساء دختنوش ، وهو
اسم بنت لقيط بن زرارة وهو معرب عن (دخت
نوش) .

كما اننا نلاحظ وجود مدني عربية اسمائها
فارسية مثل : بغداد ومعناها اعطى الصنم أو الله
المعطي . البصرة ومعناها بعد الطريق وكانت (بس
راه) . الانبار ومعناها المخزن ثم حورت الى منبر .
القيروان ومعناها القافلة . ونجد عددا من القرى

والنواحي حول دمشق اسمائها فارسية مثل : مرة ،
كيوان ، برامكة ، بلودان ، زيداني ، جرجانية . وقد
تكون هذه التسميات اطلقها النازحون من بلاد
فارس الى بلاد الشام .

وقد استعملنا اعلاما فارسية حديثة مثل :
شيرين . مهتاب . شهرزاد . شهنار . سوزان .
كيثي . مهيار . فرهود . جهان . فرزان . وقد
تكون هذه الاسماء أسماء غلمان وجوار وقد تكون
استخدمناها تحببا لبرقتها .

واذا دخلت الاعلام الفارسية . فان اغلب
اسماء الفرس كانت عربية أو مركبة مع العربية .
فقد تأثرت الاعلام الفارسية بالاسلام فاستقوا من
الدين الاسلامي ، ومن المذهب الجعفري خاصة هذه
الاعلام . فمنها : خير الله . شكر الله . وقد تكون
هذه الاعلام غير مستعملة عند العرب مثل : ذبيح
الله ، قدرة الله ، يد الله . وقد يركب العلم من كلمة
فارسية وكلمة عربية مثل : خدا مراد . خدا رحم .
خدا كرم . وقد يستخدمون أسماء الانبياء واسماء
آل البيت مثل : عبد . محمد . عبد الرسول . عبد
النبي . وقد يتغير اسم محمد الى مدد ، واسم محمد
علي الى مدلي . ويسمون كلشوم فيقولون لها
كرسوم .

ثم هناك : علي . حسن . حسين . باقر .
صادق . اصغر . كاظم . رضا . تقي . تقي . وقد
يعرفون بعضها فيقولون لزين العابدين زينل أو زينل
لايدين . وقد يركبونها أو يدخلون عليها لفظة (عبد) :
عبد الحسين . علي اصغر . عبد الرضا . غلامحسين .
غلامعلي . كما ادخلوا عليها أسماء الاشهر الهجرية
فقالوا : صفر علي . رجب علي . رمضان حسين .

وقد تأثروا بأعيادهم التقليدية القديمة ، وأهمها
النوروز والمهرجان . وبالرغم من ان الامويين لم
يتعمدوا التأثير بالأعياد الفارسية . لأنها أخذت
تسرب الى العرب بدون استئذان ، حتى اذا كان
العصر العباسي نقلوا اليها الكثير من عاداتهم ، والتي
كان لها النفع الكبير لمحبي اللهو والطرب ، والآثر في
الادب العربي .

ونوروز ومعناها اليوم الجديد أي عيد رأس
السنة ، ويأتي في 21 آذار من كل عام ، ويعتبر
أول الربيع ، وهو أعظم أعيادهم . أما المهرجان ولفظه
الفارسي مهرگان ، فهو عيد الخريف ، ويبدأ في أول
الخريف ، وأوله 23 ايلول . وأهم أمر في هذين

العبيد اهداء الملابس والاموال الى الشعب وتقديم الاطعمة المتنوعة . يحكى انه قدم لسيدنا علي كرم الله وجهه طعام فارسي ، فاجبه وسال : ما هذا ؟ قالوا : هو النوروز . فقال : نوروزنا كل يوم . كما يحكى ان الحجاج اول من رسم هدايا النوروز والمهرجان في الاسلام ، وابطلها عمر بن عبد العزيز . وشاعت في العصر العباسي اذ كان الامراء يوزعون البستهم على حاشيتهم ، كما كان يفعل الاكاسرة . وصار من الشائع ان نسمع عن النوروز في الشعر ، كما في قول البحري وهو يصف الربيع :

انك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

وقد نبه النوروز في غسق الدجى
اوانل ورد كن بالامس نوما

وقد مدح المتنبي ابن العميد وهو يهنئه بعيد النوروز بقوله :

جاء نوروزنا وانت مراده
وورت بالذى اراد زناده

عظمت ممالك الفرس حتى
كل ايام عامه حساده

وصف ابن الرومي عيد المهرجان حينما هنا
عبيد الله بن عبد الله به فقال :

ما رات مثل مهرجانك عينا
اردشير ولا انو شروران

مهرجان كانما صورته
كيف شامت مخبرات الاماني

اما الحركة الادبية فقد حصل فيها تبادل تام بين الامة : ولكن هذه الصلة وهذا التبادل يقل ظهورهما في الجاهلية ، الا ما ذكرنا من الفاظ ومور . واذا بقي الشعر الجاهلي الى اليوم واستطعنا تمييز ما اقتبسوه من الفرس ، فان الادب الفارسي ضاع قبل الاسلام ، فلم نعد نعرف بماذا تأثر العرب وبماذا اثر العرب .

على اننا عندما نقول الادب الفارسي فانما نعني الادب الذي يظهر بعد الاسلام ، وبعد ان ترعرع ونشأ في حقل الادب العربي ، وبعد ان غدته اللغة العربية والثقافة الاسلامية بجملها وتراكيبها وامثالها واساليبها وبلاغتها .

واذا طالعنا كتبهم الادبية وجدناها زاخرة بالافاصيص العربية والحكايات الشهيرة كحكايات حاتم الطائي ولقمان الحكيم وقيس وليلى . ومن اهم هذه الكتب : كلستان . بوستان . منطق الطير . قابوسنامه . كما انهم اقتبسوا من القروان والحديث وقصائد الشعراء المشهورين كالمتنبي والمعري ، وكذلك تأثروا بالمقامات . والفوا على منوالها في القرن السادس الهجري . على انهم اذا بدأوا مقلدين لمذاهب وافراض الادب والشعر فانهم ما لبثوا ان تخطوا مراحل تجديدية ومبتكرة لدرجة انروا فيها بالادب العربي والهندي والتركي .

اما الادب العربي فقد تأثر بدوره بالادب الفارسي وثقافته ، ذلك ان كثيرا ممن دخلوا في الاسلام اضطروا الى تعلم اللغة العربية ، وسرمان ما ظهر منهم ومن نسلهم كتاب وشعراء بالعربية في حين ان نطقهم للحروف العربية لم يكن سليما - في بادئ الامر - ومن اقدم هؤلاء : زياد الاعجم ، اسماعيل بن يسار النسائي . ابو العباس الاعمى . موسى شهوات . فهؤلاء وغيرهم نشأوا نشأة فارسية ، وتادبوا بالادب الفارسية ثم صاغوا ادبهم بالقالب العربي فاحكموا التقليد اذ ان الفاظهم عربية وتراكيبهم عربية واوزانهم عربية ، وكان الخيال الفارسي ، والروح الفارسية ، والمعاني الفارسية بادية في شعرهم العربي الذي يصوغونه .

وعندما كان الشاعر الفارسي يفخر بقومه على العرب ، كان يستوحى من تراث اجداده ما يقدر ويتخيل ما كانوا فيعرضه بشكل تفاخر ، كقول اسماعيل :

رب خال متوج لي وعسم
ما جد مجتدى كريم النصاب

انما سمي الفوارس بالفرس
س ، مضاهاة رفعة الانساب

فاتركي الفخر يا امام علينا
واتركي الجور وانطقي بالصواب

وانسالي - ان جهلت - عنا وعنكم
كيف كنا في سالف الاحقاب

اذ نربي بنائبنا وتدسو
ن سفاها بناتكم في التراب

وكان اشعب في السامعين ، فقال له : صدقت والله ، اراد العرب بنائبهم لغير ما اردتموهن له . قال

اسماعيل : وما ذلك ؟ . قال اشعب : دفن العرب بناتهم خوفا من العار ، وريثموهن لتكفوهن ، (ويقصد انهم كانوا يتزوجون بناتهم) . فضحك القوم واخلج اسماعيل .

ومع قلة ما وصلنا ، فقد استفاد من ذلك الادب قداماؤنا فكثيرا ما يقول ابن قتيبة في عيون الاخبار: وفي كتب المعجم كذا ، وقرأت كتاب ابرويز الى ابنه شيرويه . وكثيرا ما ينقل صاحب التاج اشياء من اخلاق ملوك الفرس وادابهم وكتبهم .

كما ان كثيرا من الشعراء والادباء من العرب كانوا ينزلون فارس او العراق ، ويخالطون اهلها ، ويرون مدنيته ، ويكون لذلك اثر في ادبهم وفي شعرهم . فقد نزل الطرماح وابو النجم التراجيز وجريز والفردق العراق ، وابو تمام والتميمي فارس . وقد كان الفرس شديدتي الامجاء بالشعر العربي فكانوا يتوخون محاكاة في كل اشكاله واغراضه .

فال موضوعات التي نظموا فيها ، بعضها تابع لموضوعات العرب كالمديح والفخر والهجاء والغزل والثناء والوصف والحكمة ، وتفوقوا في موضوعات الحماسة والقصص ووصف الطبيعة . وقد قلدوا العرب في وصف الاطلال مع انه عربي خالص كالشاعر متوجهمري في القرن الخامس الهجري وهو اول من قلد الاطلال . كما قلدهم في بكاء الديار والاناتر كما فعل خاقاني في وصف ابوان كسرى الذي سبقه البحرني بقرون في وصفه . وكذا بكى حميد الدين البخلي مدينة بلخ عندما خربها الفرس سنة 548 هـ . كما انهم غالوا في الموضوعات الشعرية التي اخذوها من العرب كالمديح والخمرة والغزل . وبرهوا في الشعر القصصي ، وتجلت براعتهم في نظر الفردوسي للشاهنامة التي يريد عدد ابياتها على خمس وخمسين الفا من الابيات على بحر واحد هو المتقارب . ثم هناك يوسف وزليخا ، خسرو وشيرين ، ليلي والمجنون .

والتصوف من الموضوعات التي تآثر العرب بها واهم الشعراء المتصوفين الفرس جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي . اما الاوزان والقوافي فقد نشأ العروض الفارسي في احضان العروض العربي وفي دوائره وبحوره واصطلاحاته وقوافيه . الا ان الفرس آثروا بعض الاوزان العربية لانها اكثر طواعية لآلتهم واقرب الى انطباعهم ، واصلحوا ثلاثة ابحر وهجروا بعضها ، واكثروا من المتنوي اي الشعر

مزدوج القافية بين الشطريين . كما اخترعوا الرباعيات ونظموا بها قبل الخيام وقبل العرب . وخالفوا الموشحات العربية بموشحات سموها ترجيع بند منذ اوائل القرن الخامس الهجري .

ومن الشعراء العرب الذين تأثروا بالصور الفارسية : الكميث . العتابي . الفردق . البحرني ابو تمام . المتنبي . المعري . وتورد بعض الكتب الادبية قطعاً وابياناً تشير الى انها مقتبسة عن الشعر الفارسي كالبيان والتبيين للجاحظ ، وبتيمة الدهر لابن قتيبة ودمية القصر للباخرزي . على ان المجال الضيق لا يسمح لنا باستعراض نماذج من ذلك . ونذكر ان ابا نواس له قصائد فارسية لا يعرفها الادباء العرب ، سميناها (فارسيات ابي نواس) .

وما يقال عن الادب والشعر والعروض يقال عن البلاغة ، فقد كانت قواعد الاسلوب الادبي الفارسي مطابقة تماماً لقواعد الاسلوب العربي من حيث اليجاز والاطناب والتشبيهات والاستعارات . كما ظهر نوع من الشعراء زادوا من التبادل الثقافي ، لانهم نظموا باللغتين فسموا (ذوي اللسانين) .

ويحسن ان اتوقف لحظات عند الخمرة والغزل المكشوف قبل ان اختتم الموضوعات الشعرية . فالخمرة كانت معروفة في الجاهلية ، تاجروا بها ، وشربوها ، وحرّمها القرءان ، ووصفها الشعراء . وازدادت مع الزمان حتى بلغت اوجها في الاتساع والجرأة في العصر العباسي . وعلى هذا فالشعراء العرب الذين وصفوا الخمرة لم يقتبسوا عن الشعراء الفرس لسبب بسيط هو ان ميلاد الشعر الفارسي لم يبدأ قبل اواخر القرن الثالث الهجري ، ونعلم ان الاخطل وشارا وابا نواس ومن لف لفهم عاشوا وماتوا قبل ذلك بكثير . ولكننا نقول ان الترف الذي عرفه العرب عند تماسهم بالفرس فسح الطريق لمثل هذا اللهو اكثر .

والغزل المكشوف كان معروفا كذلك عند امريء القيس والنايفة والاعشى منذ الجاهلية ، وعند الاخطل وعمر والوليد وغيرهم في العصر الاموي . ويزداد الغزل المكشوف حرية حتى يبلغ العصر العباسي عند بشار وابي نواس واسماعيل بن يسار وغيرهم . ولم يتأثر الشعراء العرب بالغزل الفارسي للسبب الذي ذكرناه في الخمرة ، ولكنهم تأثروا بالحضارة الفارسية التي زادت من جهة هذه الجرأة في الكشف . اما الغزل الغلامي فالجاهلية لم تعرفه

ولا القرن الاول ، ولكن جاء به الترف والحضارة الجديدة وكثرة الفلمن والسقا . على ان الفرس ليس عندهم ضمير خاص بال مؤنث وضمير خاص بالذكر ، فالضمير لكليهما واحد ، وكذا الامر في المخاطب والمخاطبة واسم الإشارة ، لذا فاذا نادى الفارسي لم يعرف السامع هل النادى مذكر ام مؤنث ، على ان هذا ليس دفاعا عن الفرس فهذا هو الواقع ، كما ان الفرس لم يقولوا الشعر قبل رواج الفزل الفلامي ، وبعدئذ برعوا فيه ، انما الحضارة وكثرة الفلمن والترف هي التي ساقطت الشاعر والحياة الى هذا اللون من الفزل . وجدير بالملاحظة ان العرب في الطرف الغربي من الامبراطورية العربية لم يفعلوا فعل الشرقيين في الفزل المكشوف والفزل الفلامي .

وما يقال عن كل ما مضى من تبادل في التأثير والتأثير نقوله من القصص والحكايات ، فقد تأثرنا بأساطيرهم وحكاياتهم وتأثرنا بهم في حكاياتنا وقصص قراءنا . وكذا استفاد الفرس من الامثلة العربية ، كما استفاد العرب من الامثال الفارسية .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تأثيرا في الامم وفي ادابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي المجوسية ، والمناوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلفهم بها وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من عناصر الطبيعة التي عبدها الفرس والشرق ، وبدا كل ذلك في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار الشعراء بعد الاسلام كبشار والمري والمنتبي وابي تمام . ولا ادل على تأثرهم بالاديان الفارسية من قول ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية : « وكانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاة . وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث ابن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم ، وكانت الزندقة في قريش . اخذوها من الحيرة » . وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فعزله قباز وعين مكانه الحارث ابن عمرو امير كندة بعد ان اعتنق المزدكية .

وقد تأثر الاسلام بالزردشتية كما يقول احمد امين بعقيدة العامة من المسلمين في بعض الامور ، كما تأثرت المعتزلة بمسألة الجبر والاختيار . ومن الجدير بالذكر ان الاعاجم عندما دخلوا الاسلام كانوا على دين خاص ورثوه من اجدادهم ، ولم تمنح من مخيلتهم ملامح دينهم القديم فاضافوها على ما يتعلمونه من الدين الاسلامي .

ووجود الزندقة ، وبقايا المجوسية خلق حركة فكرية ومعركة ادبية جديدة ممثلة في مدارس علماء الكلام واهمهم المعتزلة . وقد الفوا الكتب ضد هؤلاء الزنادقة ، ونظم الشعراء القصائد في الرد عليهم او مشاركتهم آراءهم . ومن اهم من الف في هذا المضمار واصل بن عطاء في كتابه (الالف مسالة) للرد على المناوية . والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) .

ورغم كل ذلك فقد ازال العرب من ارض فارس تلك الديانات التي وزعتهم لفرقا ، وشتمتهم موقبا ، فجمعتهم تحت راية التوحيد ، الطاهرة ، وحررتهم من النظم الاجتماعية والطبقة الفاسدة .

وقد تبع هذه الحركة الفكرية ، حركة ادبية قريبة الشبه منها وفي مسالة تفاخر الموالي على العرب ، ورد العرب مزاعم الموالي الشعبيين . ومهما كانت النتائج ونوعية الخصام فقد نتج من ذلك تبادل ثقافي تام الاركان فيه التاريخ والفلسفة ، وفيه الشعر والنثر ، وفيه التأليف الواسعة ، والاطلاع على الفلسفة . ومهما غشت هذه الحركة من مزاعم بشوبها الخطا ، فان نتيجتها الادبية والفكرية الجديدة واقعة على الاديان العربي والفارسي على السواء .

ولقد كانت حركة المناواة شديدة في العصر الاموي ، وتضعف الحدة ويتسع نطاقها الادبي كلما دنونا من العصر العباسي او خطونا فيه . ولقد شرقت قصور الخلفاء العباسيين بالموالي رجالا ونساء وغلمانا وفصت الجيوش بهم .

واذا كان الموالي يتخوفون من الرد على الشعراء العرب في العصر الاموي فانهم لم يتورعوا عن التفاخر بجودهم امام خلفاء العصر العباسي ، وها هو الشاعر المتوكلي ، شاعر المتوكل ونديبه يقول :

انا ابن المكارم من نسل جم
وحائز ارب ملك العجم

ومحيي الذي باد من مزهم
وعفى عليه طول القدم

الى ان يقول :

نعود الى ارضكم بالحجاز
لاكل الضباب ورعي الغنم

وقد امتدت حركة الشعوبية الى ارض الاندلس بلون اخر ، فقد الف ابن غرسية رسالة فى التهجم على العرب ، فرد عليه عدد من الادباء منهم : يحيى ابن مسعدة وابو جعفر احمد البلسنى .

كما ان الموالى ناهضوا افكارهم بخلفيق احاديث مكذوبة على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) . من ذلك : لا تسبوا فارسيا ، فما سبه احد الا انتقم منه عاجلا او عاجلا . كذلك اخترع العرب احاديث ترفع من قيمة العرب وتحط بالمعجم ، من ذلك : " من غش العرب لم يدخل فى شفاعتي ، ولم تله مودتي " . على ان هذه الحركة لم تنفع التبادل الثقافي ولم تنفع الحركات الادبية بل ضررها . كما ان انتصار الموالى للرواة الفرس كابي عبيدة ، وانتصار العرب للرواة العرب كالاصمعي لم يات بالنفع بل اى بالضرر . ومن اجمل الردود على مزاعمهم الشعوبية قول المتنبي :

وانما الناس بالملوك وما
تفلح عرب ملوكها معجم

لا ادب عندهم ولا حسب
ولا مهود لهم ولا ذمم

اما الحكم والامثال : فالانسان مع انه يفضى عينيه اذا سمع حكمة فانه ينصت اليها ويميل الى الاستفادة منها والاستشهاد بها . ولقد كان للفرس اثر كبير فى الاخلاق السامية والاداب من ناحية حكمهم . ذلك ان الاخلاق الاسلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات :

1 - بالتعاليم الدينية التى وردت فى القرمان والاثر ، ومن الانجيل والتوراة .

2 - بالفلسفة اليونانية التى نقلت فى العصر العباسي .

3 - وثالثاً بحكم واقاسيم الفرس او ما نقل بواسطتهم من الهندية ، بما نقل من الملوك والوزراء ورجال الاديان الفارسية ووعاظهم . وقد ملئت كتب الادب بها ، ومن اهم الكتب التى ملئت بامثال هذه الحكم ، ميون الاخبار ، سراج الملوك ، وكتب الجاحظ وابي حيان . المقد الفريد .

ومن جملة الامثال الفارسية التى عرفها العرب واستخدموها :

- اذا جاء البعير حام حول البير .

فاني ساعلو سريرو الملوك
بعد الحسام وحرف القلم

ويتهجم ابو نواس على العرب بوسيلة اخرى ، هي تهكمه الكثير بطريقة العرب فى التقديم لقصائدهم بالفزل وبكاء الاطلال ، ودعوته الملحة الى بدء القصائد بالخمريات . ولا يمكننا - كمرب - ان نعتبره تجديدا فى الادب لان ابا نواس احاط برغبته هذه بالسخرية والوضع من قواعد الشعر العربية ، وقد كان يستطيع ان يجدد بغير تندر ، كما فى قوله :

عاج الشقي على دار يسائلها
وعجبت اسال من خمارة البلد

دع ذا ، هدمتك ، واشربها معتقة
صفراء تمتق بين الماء والزبد

كم بين من يشترى خمرا يلد بها
وبين باله على نوى ومتنفسد

اما التجديد الحق ، فهو الذى قام به المتنبي ، حينما عجب من الشعراء المتكلفين للحب ، اذا افتتحو مدائحهم بالفزل ، فقال صادقا :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم
اكل فصيح قال شعرا متيم ؟

لحب ابن عبد الله اولى فانه
به يبدأ الذكر الجميل ويختتم

على ان الامر لم يقف فى هذه المعركة على الشعر بل انبرى الطرفان بتأليف كتب فى هذا المضمار . فمن الكتب التى الفت انتصارا للشعوبيين من الموالى :

- فضل المعجم على العرب وانتصار المعجم من العرب . تأليف : سعيد بن حميد البختكان .

- ادعياء العرب . لصوص العرب . فضائل الفرس . تأليف : ابي عبيدة معمر ابن المثنى .

- المثالب . تأليف : علان الفارسي . المثالب الكبير والمثالب الصغير . تأليف : الهيثم بن عدي .

ومن الخير للطرفين ان هذه الكتب فقدت ، ولم يبق بين ايدينا الا الاسم ، والا النور القليل منتشرة فى كتب الادب وهيون اخبارها . ومن اهم الكتب التى ردت على مزاعمهم :

- العرب - لابن قتيبة . البيان والتبيين للجاحظ .

- سالوا الشاب اين شاهدك ؟ قال : ذنبي .
- احذروا صولة الكرم اذا جاع ، واللثيم اذا
شبع .

- اذا اردت ان يقبل قولك فصصح رأيك ولا
تشوبه بشيء من الهوى . فان الراي الصحيح يقبله
منك العدو ، والهوى يرده عنك الولد والصديق .

- اذا كلمك الوالي فاصغ الى كلامه ، ولا
تشغل طرفك عنه بنظرة الى غيره ، ولا اطرافك بعمل
ولا قلبك بحديث نفسي .

- استع الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك
عالم وانه جاهل ، مصرحا او مبرضا . الى غير ذلك
مما تزخر به كتب الادب والحكم .

على ان الفرس اخذوا حكمهم كذلك من القروان
والحديث ومن حكم حاتم ولقمان والمنتبي والمصري
وغيرهم واستفادوا منها بعد الاسلام .

ومن اهم الامور التي ادخلت العربية في
الفارسية ، والفارسية في العربية التصريف ،
والجواني خاصة من اسباب الترف . فلقد ادخل
نظام التسري الى الاسر العربية عادات وتقاليد
والوانا من الامور الاجتماعية ، وفنونا وموسيقا ما
كانت معروفة عندهم انما جاء بها هؤلاء الجواني من
بلادهم .

ولقد كان العربي يشتري القينة لفن تجيده ،
والشعراء كان عندهم قينات ، واغرموا بهن ومرفوا
منهن اسماء الآلات الموسيقية والازهار ورقة الفناء
والوان الطعام . كان كل ذلك يتابع للشعراء على
تأوين شعرهم وتطعيمه باوصاف وتشبيهات لم تكن

عربية . واذا استهجن الامويون ابناء الاماء فان الملب
امهات الخلفاء العباسيين كن اماء وقينات فارسيات
وغير فارسيات .

وختاما لحديثي ، انه لمن الخطا والفلو - كما
يقول احمد امين - ان نعتبر ان العرب كانوا بمعزل
مما حولهم من الثقافات والاديان ، وان آراءهم
وادابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية ، من
غير ان تغذى بغيرها .

فقد راينا انهم - حتى في جاهليتهم - لم يكونوا
بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام اكثر اتصالا والتحاما
وعلاقة . ولا يقدح التبادل الثقافي اية امة ، فالعلم
ملك شائع ومرفق مباح يفترق منه الناس جميعا ،
وليس له حدود فاصلة كالتى ترسمها السياسات ،
وانما الذى يقدح فى الامة حقا ان تغمض عيونها ،
وتسد اذانها عما حولها من نظريات وافكار ، او ان
يدغمها التعصب الاعمى ان تنسب لنفسها ما ليس
عليها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق ، وابتداع ما لم
تبتدع . كما على الامة ان تبحث عن تراثها ، ولا تتهاون
فيه ، وتحافظ عليه ، فهو الدخيرة الدسمة والمجد
الايل الذي عليها ان تبقى عليه .

ولشدة الارتباط الوثيق بين الادب العربي
والادب الفارسي الاسلامي فى العصر العباسي هذا
لزاما على دارسي الادب العربي من الفرس دراسة
الخطوط العريضة على الاقل للادب العربي ، واصبح
من الضروري لفهم الادب العباسي العربي تفهم الثقافة
العربية التى كانت مفرقة من ارض الجزيرة العربية
شرقا وغربا ، او مستقاة من الامم المجاورة ودراسة
تطور الادب الفارسي لمعرفة الجديد فى ادبنا والجديد
فى ادبهم .